

الدكتور أدورد سعيد ، "الاستشراق"

(نيويورك ، بانثيون ، 1978) ، 368 صفحة

Edward W. Said "ORIENTALISME"

(New York : Pantheon Books, 1978)

بقلم: الدكتور خليل سمعان

لما مؤلف الكتاب فانه يعرف موضوع كتابه بأنه الحلقة الاكاديمية ، التي تدرس فيها مواضيع شرقية ، يعمل ضمن نطاق تخصصها بحاثة وكتاب متخصصون يعتبرون الشرق موضوع تخصصهم الجامعي . ويتابع المؤلف فيؤكد بأن الشرق هو نى الحقيقة عالم يتألف من « حضارات وأمم تقطن المناطق الشرقية (من الكرة الارضية) لهم من طرق المعيشة والمعادن والتاريخ واقع هو اعظم بكثير من كل ما يمكن ان يوصفوا به في الغرب (ص 5) » ثم يشير الكاتب الى ان الحضارة والتاريخ لا يمكن ان يفهما او يدرسا علميا دون الرجوع الى التوى الكامنة فيهما والتعرف على حدود هذه التوى . فالملاقة القائمة بين الغرب والشرق ، كانت ولا تزال علاقات قوى ، اي علاقة تحكم الغرب بالشرق واستعماره ، على مستوى درجات مختلفة ، وصفها بكل دقة الكاتب ك . م . بانيكار في كتابه :
K.M. Panikkar : Asia and Western Dominance.
London : George Allen and Unwin, 1959.

هذا ولقد استشرق الشرق لا لكونه اكتشف « شرقيا » من جميع النواحي الممكن اعتبارها كصورة طبيعية صحيحة له . لقد اكتشف الشرق من قبل الانسان الاوروى في القرن التاسع عشر ، واستشرق لانه

« حدث العام الاديسى . فتح في عالم النقد الرصين والمنهج العلمى الصحيح . كتاب وجبت تراعه على كل طالب وباحثة واستاذ متخصص وامريكى مثقف .

هذا بعض ما نقرأ ونسمع عن كتاب الزميل الدكتور ادورد سعيد ، استاذ الادب المقارن في جامعة كولومبيا في الاستشراق والمستشرقين ومدارسهم ودراساتهم ، الفث منها والسمين .

وهو يحتوى على مقدمة وثلاثة ابواب :

فالمقدمة هي في الواقع عرض منهجى متصل ، اراد المؤلف ان يكون للقارىء تعريفا جغرافيا وحضاريا لموضوع الاستشراق ، ميز فيه بين وجهتى نظر غربيين ، اولاهما تعود الى الفكر والعمل الاوروى ، والثانية الى الفكر والعمل الامريكى في حقل الدراسات المشرقية . فبينما ينظر الفرنسى الى الشرق بوصفه المنطقة الجغرافية التى وصفها « شاتوبريان » « وثرغال » فى رواياتهما ، نجد ان الامريكى انما ينظر الى ذات المنطقة ولكن بوصفها المنطقة الجغرافية الواقعة شرقى شبه القارة الهندية .

فرايمسكى وسواه من بناء صرح النقد الحديث .
ويختتم الكتاب مقدمته بتحديد موضوع بحثه تحديدا
منطقيا لا يقبل الكثير من الجدل .

هذا الكتاب القيم حافل بوقائع تاريخية وادبية
حللها المؤلف ، مظهرا ترمز الغرب ومستشرقيه ، فالتقى
على أعمالهم أضواء تثير السبيل أمام الدارس ، وتمكنه
من تمييز الرخيص من اعمال الدعاية ، والظالم من
ترهات اعداء الحضارات غير الاوروبية ، كما تمكنه
من التعرف باساليب الاستشراق ومنطقاتها . والحق
يقال ان عرضا نقديا لكل ما جاء في هذا الكتاب القيم
من تحليل ونظريات واستنتاج لا يتسع له هذا المقام ،
وانه لا مناص للمثقف العربي من اقتناء هذا الكتاب
ودراسته بكل تودة وتأن . وقبل ان ابدأ بعرض موجز
لخلفية هذا العمل النقدي العلمى اود ان اشير الى
محاولتين اعتبرهما صرختين في واد ، اولاهما مقال
قصور جدا نشر في مجلة « الآداب » البيروتية ،
السنة 22 ، العدد 6 ، حزيران 1974 ، بقلم الدكتور
ابراهيم ابو لغد ، شكاه فيه الكاتب من سيطرة
الصهاينة الأمريكين على الدراسات العربية (ص 5-6)
والاخرى بحث قيم قدمه الدكتور هارتموت فاهندريخ
في مؤتمر الدراسات العربية في غوتنغن ، المانيا الغربية
ونشر في سلسلة دراسات المجمع العلمى في غوتنغن ،
Akten des VII kongresses für arabistik und
islamwissenschaft.

Herausgegeben von Albert Dietrich.

ABHANDLUNGEN DER AKADEMIE DER
WISSENSCHAFTEN IN GÖTTINGEN.

Göttingen. Vandenhoeck & Ruprecht. 1976 —
Hartmut Fahndrich, « Historical perspective in
Nöldeke's Orientalische Skizzen (1892),
pp. 146-154

اشار فيه الى ترمز شيخ المستشرقين الالمان في القرن
التاسع عشر ومطلع القرن العشرين « تيودور نولدكه » .
وانما اشير الى هذين العملين الادبيين لا لكونهما
مرجمين أو مصدرين من مراجع البحث ولكن لما يقتضيه
البحث العلمى من امانة تحقيق .

أما كتاب الدكتور أدورد سعيد فيمكن القول ،
وبكل اختصار ، بأنه عمل علمى يعرض آراء الاستشراق
في الشرق محلا ، ويفندنا ناقدا ، ويستنتج منها خطأ
تقسيم المجتمع الانسانى وعاداته وتقاليدته الى
قسمين : غربى وشرقى ، مشيراً الى ان هذا التقسيم

كان من الممكن تعريضه للكينونة وللصنيع كمال
شرقى . مثل هذا يستنتج من وصف الفرنسي
« فلوبيير » للسيدة « كوشوك هاتم » ، الغانية المصرية
التي لم تتكلم قط ولم تعبر عن عواطفها ، أو وجودها ،
أو تاريخها ، بل تكلم عنها ومثلها « فلوبيير » نفسه .
و « فلوبيير » هذا كان اجنبيا ، غنيا بدرجة نسبية ، ونكرا .
وهذه المواصفات بالذات هي التي تشكل الواضع
التاريخى الذى يمكن « فلوبيير » من امتلاك
« كوشوك هاتم » امتلاكاً جسدياً ، والتحدث باسمها
وشرح شرقيتها — (ص 6)

ويتابع الدكتور سعيد قائلا : انه لا يجب مطلقا
الفرض بان هيكل الدراسات الشرقية هو مجرد
اكاذيب وأوهام يمكن أن تدحض وينعدم وجودها
بجرد بيان الحقائق عنها . فالمؤلف يمتد ان الدراسات
الشرقية لها أهمية كبرى كدليل للسيطرة الأوروبية
— الاطلنطية على الشرق ، أهمية هي اكبر بكثير من
أهميتها كحقل دراسى اكايدى . ان ما يجب ان يعرفه
الدارس ويتنهمه تنهما صحيحا هو تفاعل الدراسات
الشرقية في المجتمع الغربى وعلاقتها الوثيقة جدا
بؤسسانه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ،
وايضا قوة وجودها المرهبة . فمن تحصيل الحاصل
ان اية مجموعة من الإنكار التي يمكنها أن تحافظ على
وجودها دون تغيير ، لكونها غير قابلة للتطور والتحول
كمجموعة احكام وبيادى قابلة للتدريس في المعاهد
والمنشأة في المؤتمرات العالمية ، وفي الكتب المستعملة
في تهيئة الدبلوماسيين والسياسيين ، اي عمل فكري
كهذا يبقى دون تغيير منذ عهد الفرنسي « رينان »
(حوالى 1840م) الى يومنا هذا ، وفي بلاد كالولايات
المتحدة الامريكية ، هو في الواقع عمل مخيف رهيب ،
وأرهب بكثير من مجموعة اكاذيب وخرافات تستخدم
كاداة تثقيف وتأهيل موظفين . وعليه فان الاستشراق
ليس مجرد وهم أوروبى عن الشرق . أنه مجموعة
نظريات واساليب ومبادئ وضعت منذ اجيال كثيرة
سلفت . لقد كلفت الكثير من المال ووظفت ثروات كبيرة
في استثمار الاستشراق لهدف استثمار الشرق .

هذا هو اذن هيكل الاستشراق او دراسات
الشرق او المشرق الذي يعالجه المؤلف شارحا نقائمه
ومساويء استعماله الاكاديسى في الغرب . وكما سبق
ونكرت ، يستعمل الكاتب في بحثه وتحليله نظريات
نقدية حديثة ، ومنها اجتماعيا — اقتصاديا —
سياسيا — ادبيا — تاريخيا ، معتمدا كثيرا على نظريات

وشمال افريقيا ليست المنطقة التي تشكل مركزا ثقافيا ذا قيمة أو أهمية ، وان ليس هنالك ما يدل على انها سوف تشكل مركزا ثقافيا في المستقبل القريب ولذا فان دراسة لغات هذه المنطقة لا يمكن ان تجدي نفعا على دارسيها بالنسبة للحضارة الانسانية الحديثة ... وتابع الدكتور « مرو برجر » يقول بان منطقة الشرق الاوسط « لا تشكل مركز قوة سياسية ، وان ليس هنالك ما يشير الى انها ستصبح قوة سياسية ذات أهمية » (كذا) ... هذه المعلومات الخاطئة عن الشرق والشرقيين لها اثرها في جميع مرافق الفكر الغربي . انها تنطلق من كتب التاريخ التي تدرس في ثانويات أمريكا حيث يتعلم الطالب ان الاسلام « أسسه تاجر عربي غنى اسمه محمد قال بانه نبي فتبعه قوم من العرب وغير العرب كان يقول لهم انهم انتخبوا من قبل السماء لحكم العالم » (كذا) ... واذا ، فان الاستشراق ومهنته التعليمية يحلان تسطا كبيرا من مسؤولية تخدير الخلق الغربي فلا يتاثر بتشريد شعب فلسطين ، ولا بمظالم شاه ايران لشعب ايران بل ينظر الى هذه المآسى وكأنها نتيجة طبيعية لعملية «تصنيع وتدين» الشرق والشرقيين .

على ان الكاتب لا يحكم على جميع المستشرقين بالظلم والجهل ، هنالك من المستشرقين من حصل على معرفة صحيحة بالشرق فوصفه وضفا موضوعيا لا بأس به بل هنالك من المستشرقين من ادى خدمات معترفا بها للعلم والمعرفة .

ويستخلص المؤلف من بحثه ان الدين الاسلامي المعروف في الغرب بالاسلام هو شيء والدول الشرقية شيء آخر . فكما أنه لا يجوز لنا كبحاثة منصفين القول بان المسيحية مسؤولة عن مساويء حكم الجنرالات الشيليين لا يجوز ان نقول بان الاسلام هو مرآة مساويء ومصدر مآسى الشرق والشرقيين . فالاسلام ، وهو دين مساوي مقدس وهو مصدر الغذاء الروحي للمسلمين . هؤلاء يعيشون في عالمنا هذا لا في « الاسلام » وعليه فان معرفة الاسلام والمسلمين تفرض على العارف معرفة العالم الذي يعيش ضمن نطاقه المسلم وغير المسلم ، فالمسلمون هم اعضاء في المجتمع الانساني كسواهم من المؤمنين بالاديان الاخرى . انهم اعضاء صالحون منتجون في المجتمع الانساني الذي يشكل الاسلام جزءا منه .

حيا الله الدكتور ادورد سعيد وامثاله من سفراء الحضارة العربية في الغرب .

هو من انتاج الفكر الغربي وتخطيطه للحط من قيم الانسان الشرقي وفلسفة وجوده ، وذلك كمقدمة لاستعمار الشرق من قبل الغرب الطموح الطماع . فالغرب يتحدث منذ قرون عديدة عن الصوفية الشرقية، والثراء الشرقي، وحروشة الشرق، وعقلية الشرق، وانغماس الشرق في ملذاته المادية ، وما الى ذلك من ترهات كان لها الاثر الحاسم في تصور الغرب للشرق بانه منطقة غريبة ساحرة ، غير متدنة ، ولكن غنية، لا بأس من الاستيلاء على ثرواتها « وتدينها » فتصبح صورة مقزمة عن الغرب « المتمدن » . وطبيعى ان يكون للترتمت الدينى الغربى اثر فعال في وضع الدين الاسلامى في وسط الدائرة ، وجعله موضوع تحليل ونقد عنيفين ، مما ادى الى الاستنتاج الخاطيء بان الدين الاسلامى مسؤول عن العقلية الشرقية ، والدروشة الشرقية الاستسلامية الخ . وسبب هذا التشويش الفكرى هو ان الدين الاسلامى والحضارة العربية شكلا في القرون الوسطى خطرا كبيرا على دين الغرب وحضارته . هذا الدين الحنيف لم يخضع في يوم من الايام لسيطرة الغرب وعنصريته ، ولذلك ، أصبح في نظر المستشرقين مصدر قوة الحضارة العربية الشرقية وملهمها . من هذا المنطلق بدأ الغرب يدرس « الاسلام » دراسته التحليلية المعروفة بخصبها وسوء منهجها . ومن هنا استنتج الاستشراق ان طريق التعرف بشعوب الشرق لا تتم الا عن طريق التعرف « بالاسلام » . وكذلك السيطرة على المشرق : فقد قرر المستشرقون انها هسى أيضا لا يمكن ان تتسم دون «الاستيلاء» على «الاسلام» .

ويفند الكاتب موقف الغرب المسيحي من الاسلام ونبيه تنفيدا يظهر بوضوح جهل الاستشراق وظلمه وعجرفته . هذا الجهل هو الذي ادى بالاستشراق الى الاعتقاد بان على كاهله تقع مهمة « تدين » الاسلام والشرق المسلم . ويقول الكاتب ان كارل ماركس نفسه لم يكن معصوما عن الوقوع في خطأ نظريات الاستشراق هذه . كما يشير الكاتب الى ان الاستشراق ، وهو غير قابل للتطور والتحرر من تزمته وعنصريته ، ما زال حتى في ايامنا هذه مصدرا للمعلومات الخاطئة عن الشرق والشرقيين . فهو يشير الى تقرير كتبه عام 1967 الدكتور « مرو برجر » ، استاذ العلوم الاجتماعية في جامعة برنستون الامريكية، ورئيس جمعية الدراسات الشرقية وشمال افريقية في أمريكا وكندا ، يقول فيه بان منطقة الشرق الاوسط